الدين وإخفاء الأنظمة الاستعمارية الاستيطانية المتواطئة

بقلم: ميمونة ش. خان و يحيى اللهيب
ميمونة ش. خان، طالبة دكتوراه، جامعة ماكمستر، كندا
يحيى اللهيب، أستاذ مشارك، جامعة كالجاري، كندا

على الرغم جميع الأديان ترتكز على الحب والتعاطف والرحمة، فقد كانت الديانات المنظمة متواطئة في ممارسات مشكوك فيها تقوم على السيطرة، ورفض الآخرين ومعتقداتهم، وتغذي خلق الدول القمعية. وما زلنا نرى الخلط بين الإيمان والدين الذي يدعو، في أفضل السيناريوهات، إلى التسامح والقبول للعيش معًا في وئام، وأمّا في أسوأ السيناريوهات فهو يعمل كأداة لإخفاء المصالح الإمبريالية والتغطية على أجندات الاستعمار الاستيطاني التي تظهر من خلال الصراعات الدينية على الأماكن المقدسة. لقد أدى تنظيم الدين ومأسسته إلى تشويه مبادئ الحب والتعاطف والرحمة. إذا نظرنا إلى تاريخنا المعروف، كم من الحروب بدأت للسيطرة على إيمان الناس باسم الخلاص والحداثة والتنوير؟ هناك أمثلة لا حصر لها، لكن الدرس المهم الذي يمكن أن نتعلمه هو أن الحروب الموجهة دينيًا كانت دائمًا تستخدم كسلاح لتحويل الناس إلى دين جديد من خلال حروب الخلاص، أو الحروب التنويرية، كتغطية للمصالح الاستعمارية، أو للقضاء على الناس والمطالبة بأراضيهم باسم التفوّق دينيّ والتطهير.

إن الإبادة الجماعية المستمرة في فلسطين تجسّد هذه التوترات منذ نكبة عام ١٩٤٨. ويرتكز المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيونيّ في فلسطين على ادعاءين رئيسيين: أولاً، أرض بلا شعب لشعب بلا أرض؛ وثانياً، المطالبة بحق «العودة» إلى أرض أجداد اليهود في فلسطين. لكي تنجح هذه المطالبات، هناك حاجة إلى تهيئة الظروف اللازمة لدعم الادعاء الكاذب بـ «أرض بلا شعب» - أي إفراغ الأراضي من سكانها الأصليين الذين كانوا يسكنونها منذ آلاف السنين، وبالتالي لاستخدام الأدوات الاستعمارية التي تنزع فلسطين وشعبها من التاريخ، وذلك كسلاح لتصنيع موافقة عالمية على التطهير العرقي المستمر للفلسطينيين. إنّ رفض الشعب الفلسطينيّ وتاريخه وثقافاته هو مظهر جوهري للعنف والسيطرة الاستعمارية، والذي أصبح ممكنًا من خلال الدعاية الدينية المستخدمة لجذب «الناس الذين ليس لديهم أرض». ونحن نرى أن مثل هذه الدعاية تعتمد بطبيعتها على تحويل المطالبات اليهودية بأراضي السكان الأصليين إلى سلاح ضدّ الفلسطينيّين- وهذه المطالبات هي عنصر أساس في التبرير الصهيوني لإنشاء مستعمرة استيطانية إسرائيلية.

وأمّا الادعاء الثاني لما يُسمّى "حق العودة" إلى أرض الأجداد اليهودية فهو إساءة للدين لإخفاء الأجندة الاستعمارية الاستيطانية الصهيونية. تستخدم الصهيونية أحد أقدم التكتيكات الاستعماريّة، حيث تصوّر السكان الأصليين كعدو؛ ومع ذلك، فهي تفعل ذلك جنبًا إلى جنب مع تصوير جماعته كضحية. وهذا يبرر الحاجة إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ضد السكان الأصليين ليس فقط لترويض العدو «الوحشيّ» ولكن لحماية مجموعته كمجموعة ضحايا. هكذا نرى التناغم بين الأديان المنظمة والمصالح الإمبريالية التي تستخدم الأدوات الاستعمارية للتجريد من الإنسانية، والتطهير العرقي، والإبادة الجماعية. لقد قام الاحتلال والإبادة الجماعية لفلسطين بإحداث تغيّرات كبيرة على ماهيّة "العدو" منذ عام ١٩٤٨، لكن الضحية [أي المحتلّ في الذهن الاستعماريّ] ظلت دائمًا كما هي. إن إنشاء مستعمرة استيطانية إسرائيلية كدولة يهودية خدم غرض بناء الشعب

اليهودي الإسرائيلي كضحايا، ولعب على المحرقة لتأكيد هذه الضحية في السنوات القادمة. وقد تجسد هذا في الطريقة التي اختارت بها إسرائيل تصميم مؤسستها الأكثر أهمية، "قوات الدفاع الإسرائيلية" فكلمة «دفاع» تفيد إضفاء الشرعية على الادعاء الصهيوني بأن الشعب اليهودي ضحية، وتساهم في تبرير العنف الاستعماري كتكتيك «دفاع» ضد العدو الأصلي «الخطير.»

وبينما تغير «عدو» دولة إسرائيل على مر السنين، لعب بناء هويات أولئك الأعداء أدوارًا محددة اعتمادًا على السياق والحاجة إلى الحفاظ على صورة الضحية للدولة. على سبيل المثال، في ذروة النضالات ضد الاستعمار وظهور حركات التحرر الوطني في المنطقة، كان عدو إسرائيل بحاجة إلى هوية قومية وعرقية، وكانت الدول والأعراق العربية تناسب هذه الهوية بشكل جيد. بدأت هذه الديناميكيات في التحول في أواخر السبعينيات بعد اتفاقيات كامب ديفيد، حيث احتاجت إسرائيل إلى البحث عن عدو آخر لتبرير استمرار أجندتها الاستعمارية الاستيطانية. وبما أن الإسلام والمسلمين تم اعتبارهم أعداء للغرب منذ فترة طويلة، فقد أصبحوا أيضًا أهدافًا سهلة لمشروع الدعاية الإسرائيلي المستمر. ما يعمل لصالح إسرائيل في هذا التكرار للدعاية الاستعمارية هو أن غالبية الفلسطينيين مسلمون وأن هناك لفلسطين أهمّية كبيرة في التراث الإسلاميّ. ومع ذلك، فإن جزءًا من التلاعب بهذه الرواية يعمل على تصوير الفلسطينيّين بأنّهم متجانسين بشكل كامل كمسلمين، وهو ما يشكّل محوًا لأهمية فلسطين بالنسبة للمسيحيين أيضًا، وبالسنبة لليهود الفلسطينيين كذلك. ونحن نرى أنه بالضبط لهذا السبب ينبغي تحدّي وصف المشروع الاستعماري الاستيطاني الصهيوني في فلسطين بأنّه صراع ديني. فمن خلال تأطير الاحتلال لهذا الصراع على أنه «صراع بين اليهود والمسلمين»، تسعى الصهيونية إلى إخفاء حقيقة أنّ الاستيطان اليهودي في فلسطين هو احتلال الاستعماري للأرض الفلسطينية، وبدلاً من ذلك، تؤكد الادعاء الكاذب بأن الأرض المقدّسة هي ملك لجميع اليهود، وأن المسلمين ببساطة كانوا يتقاتلون على ملكيتها. وفي حين أن الإسلام قد تبلور بطرق مختلفة قبل فترة طويلة من المشروع الاستعماري الصهيوني في فلسطين، فإن الخطابات والدعاية الصهيونية ضد النضال من أجل تحرير فلسطين ساهمت في تعزيز هيمنة رواية «الحرب الدينية» التي استخدمتها إسرائيل، خاصة في السنوات الأخيرة. على سبيل المثال، يتم تبرير الحصار الأخير على غزة تحت ستار أن إسرائيل تطارد ما يسمى بالمسلحين الإسلاميّين المتطرّفين الذين يشكل وجودهم تهديدًا لسلامة الشعب اليهوديّ، وهو الخطاب الذي يرفضه العديد من النشطاء والباحثين اليهود والمنظمات المجتمعيّة اليهوديّة بترديد عبارة «ليس باسمنا». في الواقع، ما زلنا نرى استخدام معاداة السامية كسلاح لتسريع المشروع الاستعماري الاستيطاني باسم اليهود، وذلك لإخفاء نواياه الحقيقية المتمثلة في الإبادة الجماعية والتطهير العرقي إن أمكن، والإبادة الكاملة للشعب الفلسطيني.

إن احتلال فلسطين والإبادة الجماعية لشعبها يُظهر الجانب المظلم للدين المنظّم؛ ويشكّل شهادة على كيفية استخدام دولة إسرائيل الاستيطانية الصهيونيّة العرقية-الدينية للإبادة الجماعية للسكان الأصليين، بينما تستخدم في الوقت نفسه الدعاية الدينيّة لغسل أدمغة مستوطنيها والمتعاطفين معها. ونود أن نؤكد على أن الفلسطينيّين متعدّدون في عقيدتهم، وأن وجود إسرائيل يعتمد على تصوير الفلسطينيين ولكأنّهم جميعهم مسلمون، وهو ما يمحو وجود الفلسطينيين المسيحيّين واليهود. ومع استمرار الإبادة الجماعية المستمرة، قد تكون هناك عمليّة إعادة

بناء للفلسطينيين كأعداء؛ إلّا أن استخدام الدين لتبرير قتل السكان الأصليين سيظل تكتيكًا استعماريًا طويل الأمد لسنوات قادمة. وعلى هذا النحو، فإننا نرى أن الاحتلال المستمر لفلسطين والإبادة الجماعية للفلسطينيين يحتاج إلى تفكيك نقديّ لإظهار استخدامه للدعاية الدينية، وتنظيمه للمطالبات الصهيونية، المقنعة باليهودية، بالأرض.

وبينما نشهد الإبادة الجماعية المستمرة في فلسطين، تحافظ الأجندة الإمبراطورية الغربية على تركيزها على وصف العنف الاستعماري الإسرائيلي بأنه صراع عرقيّ ديني. إنّ التعامل مع كل هذه النضالات المستمرة ضد المصالح الإمبريالية يتطلب حركة تحرير عالمية تدعو إلى التشكيك في التحويل المستمر للدين إلى سلاح يُستخدم لإخفاء الاستعمار الاستيطاني. وبينما نتصارع مع التواطؤ المستمر للقوى الإمبريالية، فإننا ملتصقون بالشاشات لمتابعة آخر الأخبار التي تجعلنا نتأرجح بين بصيص من الأمل والكثير من المخاوف بشأن مستقبل هذا العالم. فمن الحركة الطلابية العالمية المنددة بالإبادة الجماعية والتواطؤ الغربي في تصنيعها، إلى محاولة الانقلاب الفاشلة في الكونغو، أو الحادث (أو ربما الأكثر من حادث) الذي أودى بحياة الرئيس الإيراني ورفاقه، يبقى استقرار البلاد العالم على المحك. ستستمر الإمبريالية والأجندة الاستعمارية الاستيطانية في إخفاء مصالحها بالطريقة التي تراها مناسبة، وسيظل العبء يقع على عاتق الشعوب الواعية لمقاومة ورفض الادعاءات التي تستخدم الأنظمة الإيمانيّة كسلاح لتسهيل الاحتلال والحروب الاستعمارية. هناك مكان للإيمان في كلّ هذا؛ فالإيمان يشجعنا على التفكير في كيفية أن نكون أفضل ما يمكن أن نكون عليه لدعم بعضنا البعض، وتعزيز التضامن والعلاقات والمجتمع، مع تحقيق إمكاناتنا كأشخاص، داخل ومن خلال المساحات التي نشغلها في هذه الحياة. وما زلنا نأمل أن يتجلى ذلك بطرق تعزز التزاماتنا تجاه الإنسانية والعدالة الاجتماعية، بينما نبني مجتمعات محبّة ورفض جميع أشكال الاستعمار الاستيطاني والإمبريالية التي يصنعها الإنسان. لدينا أمل نقديّ في القدرات الجماعيةّ للإيمان، وللحبّ الخالي من الاستعمار، من أجل تفكيك الإمبراطورية، وتفكيك أنظمة التواطؤ الاستعماريّة الاستيطانية.